دور العلامة محمد بن شنب في حماية مخطوطات
التراث العربي و الإسلامي في مكتبة الجزائر

الدكتورة شيكو يمينة

أستاذة محاضرة (أ) بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر

الملخص :

تسعى هذه المداخلة إلى الكشف عن إسهامات العلامة الجزائري (محمد بن شنب 1869-1929م) في المحافظة على مخطوطات التراث العربي و الإسلامي بأسلوب معاصر في زمن كادت تتهاوى فيه فكرة الهوية والقومية وزالت فيه سيادة الدولة خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

و تجلت حمايته لمخطوطات ذلك التراث في اهتمامه بالكتب التي كانت في المسجد الكبير بالجزائر العاصمة بعد أن حولها الفرنسيون بعد 1830م إلى مكتبة الجزائر الرئيسية. فألف (محمد بن شنب) كتابا عنوانه (Catalogue des manuscrits arabes).

وهو كتاب مزدوج اللغة و تتجلى أهميته في كونه تضمن قائمة كل الكتب التي كانت في المسجد الكبير بعد أن حولها الفرنسيون إلى مكتبة الجزائر الرئيسية كما تقدم ذكره. وما يلفت الانتباه في هذا الكتاب هو ان (محمد بن شنب) يعطينا فكرة عن حالة كل كتاب (موجود، مفقود، في حالة بالية ...الخ) مع الحرص على ترقيم ما هو موجود وما هو مفقود، وتقديم ملاحظات هامة عنها وتعليقات تبين طبيعة الخلل في ترقيم الفرنسيين لتلك الكتب: التي تذكر أن بعض الأرقام قد ضاعت بينما يكتشف (محمد بن شنب) أنها موجودة ولكن بأرقام مغايرة.

و هذا ما دفعه إلى تأليف هذا الكتاب و تقديم فكرة عن كل مخطوطات و كتب التراث الموجودة هناك، ومضمونها باختصار و أرقامها و حالتها و مكان إصدارها.

المداخلة كاملة:

يعد العلامة محمد بن أبي شنب (1869 – 1929) من أبناء مدينة المدية الذين وظفوا علمهم في خدمة تراثهم والمحافظة عليه. فقد كان وفيا لوطنه وشعبه ودينه وثقافته في فترة الاحتلال الفرنسي. فقد استعمل هذا الأخير كل السبل والوسائل المختلفة من اجل طمس هوية هذا الشعب الدينية واللغوية والوطنية. وهذه المداخلة تعاين مظاهر المقاومة الثقافية داخل جامعة الجزائر، آنذاك من خلال الأعمال الفكرية المتميزة لمحمد بن أبي شنب. فقد كان أول دكتور في الأدب العربي في جامعة الجزائر. وتجلب حمايته للتراث من خلال عدة دراسات باللغة العربية والفرنسية ليتمكن الجزائري الذي يجهل اللغة العربية من الاطلاع على تراثه الاسلامي والعربي وثقافته باللغة الفرنسية. وكانت هذه هي الميزة التي تميزت بها فطنة وذكاء ووعي محمد بن شنب في ترسيخ التراث. وسيتم التركيز في هذه المداخلة على أهم كتاب له مزدوج اللغة (عربية وفرنسية) وهو:

" Catalogue des Manuscrits Arabes"

وتتجلى أهمية هذا الكتاب في كونه تضمن قائمة كل المخطوطات التي كانت في المسجد الكبير بالجزائر بعد أن حولها الفرنسيون بعد 1830 إلى مكتبة الجزائر الرئيسية. وما يلفت الانتباه في هذا الكتاب هو أن محمد بن أبي شنب يعطينا فكرة عن حالة كل مخطوط (موجود، مفقود، في حالة بالية،...الخ).

إن الثروة الفكرية التي تضمنتها مكتبة المسجد الكبير بالجزائر العاصمة، والتي كانت تعكس ثقافة المجتمع الجزائري في دينه ولغته وعلمه، استرعت اهتمام محمد بن أبي شنب الذي كان يفقه مكوناتها ويعرف قيمة ذلك الكنز الذي لا يجب أن يهمل. فخصص لها ذلك الكتاب الذي تم طبعه في عام 1909 من قبل الفرنسيين بالجزائر العاصمة يوم كان محمد بن شنب أستاذًا بالمدرسة الجزائرية (Professeur de la Médersa d'Alger)

وفي مقدمة هذا الكتاب يشير إلى أن مكتبة المسجد الكبير بالعاصمة كانت تتضمن على الأقل خمسة آلاف كتاب عند قدوم الفرنسيين سنة 1830. لكن حاليا لم تعد بنفس الثراء.

ويعود السبب في ذلك إلى عدة عوامل يبينها بن شنب كما يلي:

إنه حسب ما هو معروف يلاحظ في تلك المجموعة من المؤلفات التي كتبت في إسبانيا وفي المغرب، كتب مثل (لواء النصر في علماء العصر) وغيرها، من التي لم يعد يعرف عنها حاليا إلا من خلال ما ذكره كتّاب لاحقون أو أجانب.

بالإضافة إلى ما تم أخذه منها ونقله إلى أماكن أخرى على غرار ما حدث للنسخة الثرية لصحيح البخاري الذي كتب على الرق في (Séville)، التي أخذت إلى مصر بالرغم من الحبوس، من قبل مفتي جزائري نفته السلطات الفرنسية لاجئا هناك (في مصر) بل إن تلك النسخة اشتراها فيما بعد ابن السلطان (مولاي اسماعيل) الذي نقلها إلى مسجد القيروان بفاس.

ومعظم مجلدات المسجد مصدرها أشخاص من مختلف طبقات المجتمع الإسلامي. بالمقابل كانت عطاءات البشاوات نادرة جدا: وهذا يتعلق بعادات الحنفيين، الذين يفضلون إثراء المساجد بهذه العادة ولا سيما مساجد علي بتشيني وحسن باشا، إذ أن مجموعة الكتب تم وضعها فيما بعد في المسجد الجديد.

وفي بداية سنة 1907 باشرت الحكومة الفرنسية في وضع قائمة محتويات المساجد. و تم جرد كتب مكتبة المسجد الكبير و وضعت قائمة المخطوطات التي كانت مازالت موجودة فيه ورقمت بانتظام. غير أن محمد بن أبي شنب لاحظ خطأ في ذلك الترتيب، وأنه يخلو من الدقة.

وفضلا عن هذه القائمة الجديدة يشير إلى وجود قائمة أخرى كانت خاصة بكتب المسجد الكبير، حررت في 1890، يرى محمد بن أبي شنب أنه من الضروري إعادتها في كتابه الذي ألفه تحت عنوان "فهرس المخطوطات العربية" نذكر بعضا منها كما يلي:[1]

1- نسخة بخاري.
2- نسخة بخاري
3- نسخة بخاري.
4- القسطلاني على البخاري.

علما أن محمد بن أبي شنب في مؤلفه هذا اهتم كذلك بالحالة التي كانت عليها تلك المخطوطات أولا في الفهرس كما يلي:[2]

5-	بخاري وتفاسير مختلفة	صارا بالين
8-	شفاء الغليل على الخليل	صار باليا
30-	شرح الجمل	صار باليا
45-	كتاب في الطب	صار باليا لا يصلح لشيء

ثم قام بمقارنة القائمة الأصلية للجامع الكبير بالقائمة الجديدة للمكتبة الرئيسية التي وضعت فيما بعد، فلاحظ محمد بن أبي شنب نقصا كبيرا في عدد المخطوطات في هذه الأخيرة بقوله:

« De la comparaison de cette liste avec le présent catalogue, il résulte qu'il manque actuellement les ouvrages suivants qui n'ont pas été retrouvés »[3]

وهذه أرقام وعناوين بعض منها:

- سيدي خالد على الأجرومية.....17.

- الحطاب على سيدي خليل (2ex) 22 et 29

- شرح المعاني.....25.

- تنبيه الأنام.....67، 34، 26.

- شرح الجمل.....30.

وبعد تسجيل رقم الكتب المفقودة يقدم بن شنب ملاحظاته على القائمة الحالية قائلا:

« Sur les seize ouvrages qui manquent, les numéros 26, 34, 67, 35, 52, 61 sont des doubles du numéros 102, 97, 98, 1, du présent catalogue; les numéros 17, 30 (?) 42, 53, 57 (?) ont été publiés en Orient ; les numéros 22, 29, 36, 51, et 45 nous sont inconnus ; le numéro 59 n'éxiste qu'a

constantinople à Yéni Gami (260) et au caire, à la bibliothéque Khédiviable (1, 380) et enfin le numéro 63 n'éxiste qu'a Munnich (345). »[4]

ومن ناحية أخرى يضيف محمد بن أبي شنب أن عددا من المؤلفات لم يتم جردها، أو سجلت بشكل غير سليم وتحمل في الفهرس الجديد أرقاما هذه بعض منها (2، 5 إلى 13 ثم 32، 33، 37...الخ).

وبمقارنة هذه القائمة مع القائمة التي دونت في بداية عام 1907 لاحتياجات الحكومة الفرنسية في الجزائر، يلاحظ محمد بن أبي شنب أن بعض الأرقام مثل (9، 27، 34، 54) يُذكر أنها ضاعت بينما هي موجودة ومرقمة على التوالي في الجدول الجديد تحت الأرقام التالية: (50، 54، 71، ...الخ).

أما اختفاء الكتب التالية (17، 29، 30...الخ) فهو مؤكد [5]. ويحتمل أن يكون رقم الكتاب 25 هو 103 في الجدول الجديد [6].

ولتسهيل عملية قراءة وفهم ما كتب بالحروف اللاتينية من مخطوطات وضع محمد بن أبي شنب قائمة الحروف الأبجدية وما يقابلها بالحروف اللاتينية متصرف فيها على غرار ما يلي: حرف ص يقابله باللاتينية S وحرف ذ يقابله d وحرف خ يقابله h وحرف ح يقابله h

فنجد مثلا اسم إسماعيل بالحروف اللاتينية كما يلي: Ismâ'il وعثمان Otmăn

ثم وضع مباشرة بعد هذه القائمة من الحروف الأبجدية، فهرس المحتويات باللغة الفرنسية ويتضمن ما يلي:

- Notice
- Supplément
- Coran (Texte)
- Id. Commentaire
- Vie du prophète
- Source du droit
- droit hanafy
- Droit Maliky
- Théologie

- Morale
- Grammaire
- Index des noms d'auteurs
- Ouvrages anonymes
- Index des Ouvrages

وما نجده في هذا الكتاب مباشرة تحت عنوان Supplément [7] التي يعني بها إضافات أي ما أضافه محمد بن أبي شنب وفق إطلاعه على محتويات المكتبة ومقارنتها بالقائمة التي وضعها الفرنسيون فلاحظ ما يلي:

Ouvrages primitivement considérés comme perdus mais rentrés après l'impression du catalogue N° 20

Lisez : dont il ne reste que les Trois suivant :

Exlusivement كتاب التمني- كتاب الكفارات- [8]

Mêmes dispositions que les précédents, dessins différents. Habous de la première décade de Moharram 1043 ; L'humidité commence à détériorer le présent volume ; reliure indigène moderne. 138 feuillets à 151. 201/248.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن N°107

Commentaire du coran, terminé le 15 Rabĭ'I 833 et Composé par Abu Zayd er-Rahman ben Mohamed ben Mahlûf et-Ta'ăliby, né vers 785 (1383-1384) et mort à Alger en 873 (1468-1469). –cf

Première partie, s'arrêtant à la sũr. VI, 52.

قوله تعالى: "ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون" من سورة الأنعام

Exemplaire autographe très fatigué ; écriture magrébine assez bonne. Waqf de la main de l'auteur, daté de la dernière décade de Rabi' II 835, nombreux feuillets détachés ; en cahiers dans une relieur indigène en très mauvais état 200 feuillets à 271, 147 / 215.

Publié à Alger en 1323[9].

فهذه الصفحة تعطينا فكرة عن الكيفية التي قدم بها محمد بن أبي شنب المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الرئيسية في فترة الاحتلال الفرنسي، ومدى دقة واهتمام بن أبي شنب في تعريف القارئ بالحالة التي هي عليها وكم عدد نسخها والخط الذي كتبت به(écriture magrébine)

الخط المغربي مثلا، وإن كان وقفا من صاحبه (Waqf) أو حبوس (Hobous)، وكذا حالة الغلاف الخارجي ومكان صنعها (Relieure indigène en très mauvais état) وعدد الصفحات وإن كان تاما أم ناقصا ورقم تلك الصفحات الناقصة وعددها.

أما عن محتويات هذا الكتاب فكما تقدم ذكره فهو عبارة عن قائمة للمخطوطات العربية التي كانت متواجدة في الجزائر العاصمة قبل الاحتلال الفرنسي. وهي أصدق تعبير عن التراث الثقافي الجزائري في دينه ولغته وثقافته بشكل عام.

ففيما يتعلق بالجانب الديني، فإن القرآن الكريم تصدر قائمة المخطوطات تحت رقم ((N°1(42) وتحت عنوان (القرآن الشريف) باللغة العربية، و(Texte du coran) باللغة الفرنسية.

والنسخة التي أشار إليها ذكر نوع قراءتها (قراءة ورش) مع إسمه الكامل وتاريخ ومكان ميلاده و وفاته بالإضافة إلى كل التفاصيل المتعلقة بطبعه وبالخط الذي كتب به (main Algéroise passable) ومن الذي كتبها (De El-Hăğğ Abd el Qadir ben Mohamed)

دون أن ينسى تاريخ كتابتها (27 ša'bãn 1270) والغلاف: فقد كتبت في كراس بغلاف محلي (en cahier dans une reliure indigéne) مع الإشارة إلى تعدد طباعة القرآن في أوروبا وفي كل بلدان العالم الإسلامي، وبالتالي يرى بأنه من المستحيل ذكرها كلها هنا.[10]

ويلي القرآن الكريم مباشرة تفسيره. وقد أفرد له صفحة خاصة تحت عنوان (commentaire du coran) (تفسير القرآن ووضعه تحت رقم [(22) N°2].

وفي هذه الصفحة [11] يذكر اسم المفسر وتاريخ وفاته غير الأكيد كما يلي:

« Commentaire du coran, par Imãn el-Hodã Abŭ l-Layṭ Nasr ben Mohammed ben Ahmed ben Ibrahim Es-Samar- Qandy, mort en 373, 375, 376, 383 ou dans la nuit du lundi au mardi 10 Gomădã II 393 (17 avril 1003). Cf. Brockelman, I, 195, Commencement »[12]

ويذكر السُّوَر التي تم تفسيرها "(من سورة يس إلى آخر سورة الناس) قوله تعالى يس والقرآن قرأ الكسائي يس بإمالة الياء وقرأ حمزة بين الكسر والفتح والباقون بالفتح وقرأ ابن عامر والكسائي يس والقرآن مدغم النون...الخ" [13].

ويلي ذلك مباشرة ذكر الخط الذي كتب به ذلك المخطوط ومتى وتغليفه وحالته. ويفعل محمد بن أبي شنب الأمر ذاته مع كل مخطوط يذكره في هذا المؤلف.

وبعد ذكر مخطوط تفسير القرآن يذكر مخطوطات أخرى متعلقة بالتفسير يمكن الإشارة إلى بعض منها: (معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء) ومخطوط (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) وغيرها [14].

ومخطوطات أخرى متعلقة بمواضيع أخرى نذكر منها:

(تعليق على طيّبة النشر في القراءات العشر). لقصيدة عدد أبياتها 1000 بيت، عنوانها (طيبه النشر) لشمس الدين أبو الخير محمد [15].

ومخطوط (الفريدة في النحو والتصريف) وهو قصيدة مؤلفة من ألف بيت تدعى (الألفية) خاصة بالقواعد. تأليف جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن أبو بكر بن محمد بن أبو بكر السيوطي مع تاريخ ومكان ميلاده و وفاته ومطلعها:

أقول بعد الحمد لله والسلام على النبي أفضل الأنام [16]

ومخطوط (التخليص في إعراب القرآن) ويذكر الحالة التي وجد فيها هذا المخطوط خاصة مع وجود 13 صفحة ناقصة في بداية المخطوط. ولذلك يحتمل بن أبي شنب أن يكون هذا المخطوط هو (كتاب الملخص في إعراب القرآن) لـــ (أبي زكريا التبريزي). ويذكر منه الكلمات الأولى:

سجايا لبلد ميت يخرج بإذن (جار ومجرور) والذي لا يخرج ...الخ. وهو مكتوب بالخط الشرقي (assez bonne main orientale) في 2 ربيع الثاني 771هـــ، نسخة مكتوبة في المدينة، كتبها (أبو منصور بن عبد الله بن أبو منصور العراقي. غلاف شرقي [17].

ومما تقدم ذكره – وهو مجرد قطرة من ماء البحر – يتبين أن محمد بن أبي شنب تمكن من حماية تراث وطنه في فترة حرجة من تاريخه بكل براعة ودقة و إتقان دون أن يُشعر العدو بذلك. بل وعمل على طبع هذا الكتاب وغيره في مطبعة فرنسية سنة 1909.

الهوامش:

[1]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits Arabes conservés dans les Principales Bibliothèques Algériennes publié par ordre de M : le Gouverneur Général de l'Algérie Grande Mosquée d'Alger (rue de la marine), Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur – Libraire-éditeur 1909.p V.

[2]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, PVI.

[3]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p IX.

[4]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p X.

[5]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p X.

[6]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p XI.

[7]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p XV.

[8]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p XIX.

[9]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, pXV.

[10]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p1.

[11]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p2.

[12]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p2.

[13]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p2.

[14]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p3

[15]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p11.

[16]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p11.

[17]- Mohamed Ben Cheneb, Catalogue des Manuscrits, p10.